

مقدمة

تتميز الواقعية عن غيرها من المذاهب الأدبية الكبرى بعدة خصائص جوهرية تجعل دراستها منطلقا لإثارة كثير من المسائل الفكرية والفنية الخصبة ، لا مجرد استعراض مرحل لفترة معينة من تاريخ النقد الأدبي ، وبهنا الآن أن نبرز من هذه الخصائص ما يلي :

- أنها من أشد المذاهب الأدبية حيوية وأطولها عمرا ، فإذا تذكرنا أنها قد ولدت في منتصف القرن الماضي أدركنا أنها عاصرت الرومانتيكية وورثتها ، وشهدت الطبيعية وتجاوزتها ، وتأملت مولد غيرها من المذاهب الموقوتة التي لم تعمر ، دون أن تفقد قدرتها على التجدد والابتعاث وامتصاص ما في التجارب الأخرى من عناصر صائبة وتجديدات سديدة ، من هنا تعددت وجوه الواقعية وتنوعت أصولها ، واتسمت في تطورها بالخصوبة ولم تقتصر على دورها في الماضي وإنما امتدت لتحتضن إنتاج الغد بما احتوته من نزعة مستقبلية أصيلة .

- وإذا كانت تدين في نشأتها لظروف تاريخية موضوعية مر بها المجتمع الأوربي في القرن التاسع عشر ، إلا أنها بما تمخضت عنه من مبادئ جمالية أساسية قد أصبحت ذات صبغة عالمية شاملة ، وهي بذلك تختلف جذريا عن غيرها من المذاهب الأدبية الكبرى ، فالكلاسيكية مثلا قامت على أساس التأويل الأوربي للمبادئ الفلسفية والفنية الاغريقية في مرحلة محددة من تطور الفكر الغربي فقدت بمرورها مبررات وجودها وأصبحت غير قابلة للاستزراع في تربة أخرى ، وكذلك الرومانتيكية التي لم تكن سوى تعبير حاد عن تآزم المشكلة الفردية في ظل الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية لأوروبا الغربية في القرن الماضي ، والرغبة في التحرر من القيود الكلاسيكية التي كانت قد أرهقت روح الابداع الفني بشروطها المتعسفة ، وهي ظروف قد نجد مثيلا لها في سياق التطور التاريخي للشعوب الأخرى ، إلا أنه يظل تشابها جزئيا ومرحليا لا يتجاوز السطح الملموس ولا يتعدى مجرد التقليد في التشخيص ، وبهذا لا يبقى من الرومانتيكية سوى العدوى والمراج .

أما الواقعية فإنها اعتمادا على مبدئها الأساسي في الانعكاس الموضوعي وتمثيل الأدب

للواقع - أيا كان موقعه وزمانه - فإنها تتجاوز جميع الحدود الإقليمية والتاريخية ، ويصبح في مقدور أى مجتمع اختمرت فيه سبائنها الجمالية أن يرى نفسه فى مراتها بطريقة صافية مركزة ، وتصيح المجمعات التى مازال ضميرها القومى فى مرحلة التضج والابتعات ، والتى تقف مثلنا فى مفترق الطرق تبحث عن جوهر شخصيتها وتستشرف الملايح العامة لمستقبلها وسط التيارات العاتية هى أحوج ما تكون لمواجهة النفس بشجاعة ومعرفة الأمر الواقع بعمق ، والوعى بالعوامل الفعالة لوجودها التاريخى المحدد ، ولن نجد مركبة تمخر بها هذا العباب سوى سبائى الواقعية .

- على أن أهم خصائص الواقعية فى تصورى هى قدرتها الفذة على التحون من المذهب إلى المنهج ، فلم تعد مجرد مجموعة من المبادئ المقررة التى مهما بلغت من العمق الموضوعى لا مفر من أن تكون نسبية مرتبطة بظروفها الخاصة ، ولا بد أن يأتى اليوم الذى يتعين فيه أن تفسح الطريق لغيرها من المبادئ الجديدة ، وإنما أصبحت منهجا حرا فى الابداع الفنى والأدبى ، لا يقيد من حريته الترامه الدائم بتجسيم الواقع ، إذ أنه لا يفقد لذلك طواعيته ولا مرونة أساليه ، ولا قدرته على استبصار المستقبل ، فخيوط الواقع لا تتكون فحسب من الماضى الذى يسبق لحظة تاريخية محددة ويصوغها بشكل خاص وإنما من الأجنة التى ما زالت تضطرب فى عالم غيبه وإن لم تكن مرئية بالوضوح الكافى ، وليس معنى هذا أن الواقعية من شأنها أن تقنع بالرؤى الغامضة التى ربما كانت تتمثل فى بعض لمحات التفاضل الرومانتيكى ، وإنما تتمثل مهمتها الأساسية فى وصف مولد الغد انطلاقا من اليوم وما ينوء به من أحمال نسي عن مخاض عظيم وأليم .

ويدور أن دراسة الواقعية بطريقة منهجية معمقة لم تظفر فى النقد الأدبى العربى بالعناية التى تستحقها ، بالرغم من كثرة ترديد نقادنا لمصطلح الواقعية إلى درجة الابتذال ، لكنهم قليلا ما أجهلوا أنفسهم فى تحديده بطريقة علمية موضوعية دقيقة ، اعتمادا على أن اطلاق التسمية يحيل إلى مفهوم واضح بين ، وسنرى أن الأمر يخلف عن ذلك . بيد أنه من المناسب أن نشير منذ البداية إلى بعض العوامل التى أدت إلى فقر نقدنا العربى فى هذا المجال مع ثراء أدبنا الابداعى الواقعى - خاصة منذ الأربعينات حتى الآن - ومن هذه العوامل ما هو متداول معروف من أن التنظير النقدى يعقب عادة موجات الابداع

أو يواكبها في بعض الأحيان ، ولكنه لا يسبقها إلا في ظروف استثنائية عندما يتصل الأمر بالدعوات المذهبية الكبرى في مرحلة خلقها وتأسيسها ، ولهذا كان لا بد من مرور أدبنا بمرحلة الواقعية وتوفر نماذج مكتملة قوية فيه قبل أن تبرز الحاجة إلى تحديد مبادئها الفلسفية والجمالية ، على أن هذا التحديد لم يصل إليه الفكر الغربي نفسه - مع طول عهده بالواقعية - إلا منذ فترة وجيزة نسبيا على يد بعض عمالقة النقد المعاصرين مثل « لوكاتش » و « فيشر » و « هولدمان » كما سنرى في ثنايا هذه الدراسة .

أما في نقدنا العربي فإن الإشارة إلى الواقعية قد اقتضت على تيارين :

أحدهما : يعرض لما بشكل متسر عام ، ويخلط بينها وبين الطبيعية التي تتسم بالتشاؤم وتفرق في مستنقع السلبات الآسن وتغفل ما في الحياة من قدرة على التفوق والشمس .
والثاني : يفرقها في الحمام الأيديولوجي الماركسي بطريقة مذهبية متعصبة ، متجاهلا انتصار الواقعية النقدية في الآداب الغربية والعربية على السواء .

ومع ذلك فقد ظل لدى كثير من النقاد - خاصة من الشباب - نوع من الخدس الصائب بأن الواقعية لا يمكن أن تقف عند هذا الحد ، ولا أن تقتصر على هذين التيارين ، غير أن الظروف العصيبة التي مروا بها في العقدين الأخيرين - خاصة في مصر - قد فرضت على كثير منهم عزلة حجبت عنهم امكانية استشراف هذه الآفاق الرجوة .

* * *

لذلك فإنني عندما أقدم هذه الدراسة التي يبدو في الظاهر أنها قد جاءت متأخرة عن موعدها ، أدرك بعمق صعوبة المهمة التي أتصدى لها ، وحساسية الأرض التي أخطو فوقها ، وحسبى أنها مجرد محاولة للاستكشاف والتبصر ، لا تتعصب لما تعرض ، ولا تنكر أن الكلمة الأخيرة في أي شيء هي دائما تلك التي لم ينطقها أحد بعد ، ولا يغيب عنها أن أهم ما ينبغي أن تتوخاه وتحرض عليه إنما هو الروح النقدي الأمين .

دكتور صلاح فضل